١٦٥٢٠

مجلّه	الازهر
تاریخ نشر	ذوالقعدة ١٣٩٦
شماره	٩ سال ٤٩
شماره مسلسل	
محلّ نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	ابراهیم ابوالخشب
تعداد صفحات	١٤٣٠ - ١٤٣٣
موضوع	مع ادب القرآن «والذين كفروا» - ٥ -
سرفصلها	
کیفیّت	
ملاحظات	

مع أدب القرآن :

الذين كفروا

للدكتور إبراهيم أبو الخشب

— ٥ —

كانت سورة البقرة وهى تأخذ فى سياقها لبيان المكانة الانسانية لهذا الكتاب الكريم الذى جعلت من شأنه أنه قوة دافقة من الهداية للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ، تتعرض للحديث لما يقابلهم من أصناف الآدميين ممن لم تتفتح قلوبهم للهداية . ولا أفئدتهم للنور، ولا أبصارهم على الضياء . وهم الكفار الذين أعلنوا التمرد والعصيان والتزموا جانب الباطل ، ولاذوا بكنف الغواية ، وانحازوا الى ناحية غضب الله بما استوجبوه لأنفسهم من اللعنة ، وما انحدروا فيه من سخط رب العالمين ، ثم المنافقون الذين وقفوا فى منتصف الطريق فلم يكونوا فى علانية من أحد الجانبين . ولا على شجاعة كافية لانضمامهم الى معسكر من هذين المعسكرين «واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم» وأصل كلمة الكفر كانت تنصرف عند الاطلاق الى معنى الستر ، ومن ذلك قول القائل الليل ساتر أى يغطى بردائه الأسود الوجوه والمعالم فلا يدرى أحد حال آخر ، وكأنما كان الكافر كافرا أو مستحقا لهذا الوصف لأنه غطى قلبه عن الهداية ، وحجبه عن المعرفة ، وحال بينه وبين الرشد . وعطل الفطرة التى فطره الله عليها . والاستعداد الذى أودعه الله فيه ، وفى الحديث النبوى الشريف ما يفيد أن فى الجسد

مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهى القلب ، وكما يكون صلاحه بالعلم والمعرفة ، يكون كذلك تنحيه عن المعوقات المعطلة ، والأمراض الضارة والحواجز المانعة ، ولهذا نرى القرآن يكثر من وصايته للمؤمن صيانة لقلبه من التلف ، وليقينه من الشك ، ولعقيدته من البلبلة — ألا يخالط أهل الباطل ، أو يعيش مع أرباب الزيغ ، اذ يقول : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار .. يا أيها آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا .. والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » ونحن نلحظ — هنا — أن الآية الكريمة تقدم « ان الذين كفروا » بهذا العنوان كما تتقدم الدعوى على دليلها ، أو النتيجة على مقدمتيها . ليكون ذلك أشبه بالمفاجأة المذهلة . أو المباغته الغريبة ، التى لا يكون من ورائها الا الترقب والاستشراف والتطلع والانتظار ، والتلهف الى ما سيجىء بعد هذا كله . وهو أسلوب يدعو الى البحث والنظر وبخاصة اذا أضيف اليه تمام الآية « سواء عليهم » الخ . حتى اذا ما وصل المطاف بصاحبه الى مابعدها من الختم على القلوب والسمع وجعل البصر مغطى عليه بحجاب يحول بينه وبين رؤية الأشياء . آمن أنه لا أمل فى الهداية . ولا رجاء فى الرشد ، ولا ترقب أبدا لأن يستقيم هؤلاء على الجادة . أو يسيروا على السنن أو يرودوا أنفسهم على الحق ، أو يحملوها على الصواب ، أو يلووا عنانها الى الصراط السوى ، مادامت الوسائل قد تعطلت ، والأسباب قد انعدمت ، والوسائط صارت غير صالحة لأداء مهمتها ، والانصراف الى غايتها ، وهذا الختم الذى كان بمثابة الحاجز الذى جعله الله على القلب فلا يدرك أو يعى ، ولا يشعر أو يحس ، ولا يرق أو يهفو ، ولا يهتز أو يميل ، ولا ينعطف أو يحن ، ولا يذعن أو يصدق . وعلى السمع — كذلك — فلا يصل اليه الصوت، ولا يخترق حجابه النداء ولا يدوى فى داخله لحن ، ثم هذه الغشاوة التى جعلت صاحبها فى ليل سواده من سواد الغراب ، وحيرته توصد فى وجهه الأبواب ، وتملأ طريقه

بالضباب ، وكانت تلك فى اجتماعها أو افتراقها بمثابة الجدار المتماسك القوى الذى لا تستطيع قوة أن تقتحمه أو تنفذ منه ، وعلى هذا كانت سواء عليهم أشبه بالتحدى والاعجاز لأن الايمان لا يستقر فى القلب ، ولا تطمئن له النفس ، ولا ينقاد اليه الفؤاد ، ولا يطيب به الخاطر ، خبط عشواء ، من غير طرق يمر بها ، ومنافذ يسلكها ، وأبواب يلجها ، وتلك هى الحواس الخمس التى جعلها الله سبحانه جنودا للعقل الانسانى الذى جرى القرآن الكريم على تسميته باسم القلب وهو مركز الادراك ، وميزان الصواب والفيصل بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والضار والنافع ، وربما كان السمع والبصر من هذه الحواس محل الاهتمام والرعاية دون سواهما من الحواس الأخرى ، واذا كان السمع هو الوسيلة الوحيد الى التلقى من الآخرين ، والأخذ عنهم ، والانتفاع بهم ، والمشاركة لهم فى هواجسهم وأفكارهم ، فان البصر سبيل الى المشاهدة التى هى أقوى سبل الاقناع الذى يصحبه الاطمئنان والتسليم ، والايمان والتصديق ، ولهذا نرى الآيات الكريمة تعول عليه ، وتنادى به ، فى مثل قوله سبحانه : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا .. قل انظروا ماذا فى السموات والأرض .. أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » .. وعلى قدر ما كان الكافر عليه من الاستمرار فى الغواية والاسترسال فى الباطل ، والبقاء فى الجحود ، والاصرار على الطيش والتمادى فى الاعراض ، لم تقف الرسالات التى جاءت بها الرسل المتعاقبة منه موقف قلق وخوف ، ومعاناة واهتمام ، لأنه انسان معطل الفكر والرأى ، والعقل والادراك والذوق والاحساس ، لكن معاناتها الحقة ، وقلقها الشديد ، وعناءها الدائم ، كان من المنافقين الذين يضمرون غير ما يظهرون ، ويعلنون خلاف الذى كانوا يكتمون ، وانما كانت هذه المعاناة وذلك التعب ، لأنهم لا يعرفون على وجه التحديد

الوضع الذى يضعونهم فيه ، والجماعة التى يلحقونهم بها ، لتكون معاملتهم واياهم على أساس من الحق ، أو أصل من الصدق ، وتلك الأوصاف التى نعتهم القرآن الكريم بها . لم تكن هى كل ما تميزوا به من الشر ، أو اختصوا به من النقص ، أو انفردوا به من العيب ، ولكنهم كالأمراض الخبيثة التى جعل الله فيها ألف جرثومة وجرثومة ، فى الوقت الذى جعلهم يستعصون على الدواء ، ولعل هذا هو السر فى أنهم يوم القيامة يكونون فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا .. والتحليل البشرى لهؤلاء الذين نسميهم فى العرف الأخلاقى بالمنافقين يرى أنهم أحط الطبقات الآدمية طباعا ، وأخسهم نفسا وأقلهم ادراكا ، وأكثرهم جهلا ، وأسفلهم تطلعا وطموحا ، لأنهم فقدوا شجاعة الرأى ، وسلامة الطبع ، وكرم النفس ، وقوة الادراك ، وصحة العقل ، وشرف الذوق ، ومعنى الآدمية وصاروا فى سواد الناس بجراثيم سوء . ووباء أمراض ، وعوامل هدم ومن حق الدساتير التى تقطع يد السارق أو رجله أن تقطعهم من جذورهم لأنهم يزيدون على اليد والرجل جوارح أخرى ، خلقها الله للشر ، وجعلها للسوء ، وجندها للفتنة ، ونصبها للايذاء . . والكافر الذى طمس الله على بصيرته ، وختم على قلبه وعلى سمعه ، أذاه يعود على نفسه . وضرره لا ينال غيره . أما أمثال هؤلاء فانهم جراثيم تتمكن فى الأرض ، وتنتشر فى الأنحاء ، وتمتد حبالها بين الناس .

د. ابراهيم على أبو الخشب

دين يلعن الظلم

وللترمذى أن احب الناس الى الله يوم القيامة وادناه مجلسا امام عادل . وابغض الناس الى الله وابعدهم منه مجلسا امام جائر ..